ما ترك قومٌ الجهاد إلا ذلُّوا

الحمد لله الذي أمر بالجهاد، لتطهير الأرض من الكفر والفساد، ووعد المجاهدين بعظيم الأجر والثواب، حكم بأن الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله أعظم تجارة تحصل بها النجاة من عذاب الله، وهي سبيل لمغفرة الذنوب، ودخول الجنان، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، رغَّب في الجهاد وجعله ذروة سنام الإسلام، وجاءت شريعتُه معلية لمنازل المجاهدين في سبيل الله، "فقال: وَأُخْرى يَرْفَعُ اللَّه بِها العَبْدَ مئَةَ درَجةٍ في الجَنَّةِ، مَا بيْن كُلِّ دَرَجَتَين كَما بَين السَّماءِ والأرْضِ قَالَ: وَمَا هِي يَا رسول اللَّه؟ قَالَ: الجِهادُ في سبِيل اللَّه، الجِهادُ في سَبيلِ اللَّهِ". رواهُ مُسلمٌ.

إن الجهاد في سبيل الله من أفضل القربات، ومن أعظم الطاعات، بل هو أفضل ما تقرب به المتقربون، وتنافس فيه المتنافسون بعد الفرائض، وما ذاك إلا لما يترتب عليه من نصر المؤمنين وإعلاء كلمة الدين، وقمع الكافرين والمنافقين، وتسهيل انتشار الدعوة الإسلامية بين العالمين، وإخراج العباد من الظلمات إلى النور، ونشر محاسن الإسلام وأحكامه العادلة بين الخلق أجمعين، وغير ذلك من المصالح الكثيرة والعواقب الحميدة للمسلمين،(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة:35].

وقد ورد في فضل الجهاد في سبيل الله وفضل المجاهدين من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يحفز الهمم العالية، ويحرك كوامن النفوس إلى المشاركة في هذا السبيل، والصدق في جهاد أعداء الدين، والجهاد في سبيل الله فرض كفاية على المسلمين إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وقد يكون في بعض الأحيان من الفرائض العينية التي لا يجوز للمسلم التخلف عنها إلا بعذر شرعي، كما لو استنفره الإمام أو حاصر بلده العدو أو كان حاضراً بين الصفين.

والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة معلومة ومتعددة

الحديث عن الجهاد في سبيل الله حديثٌ عن معالي الأمور، وإن كرهَته النفوس، كما قال ربنا: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [البقرة:216].

إنه حديث عن تحرير الفرد والأمة من عبودية الشهوات، واستنقاذٌ للنفوس من الوَهْنِ والجبن والخور، وهو طريقٌ إلى نشر الدين وإرهاب العدوّ، ومَدِّ رواق الإسلام في أنحاء المعمورة، وتخليص الأمة من ذُلِّ التبعية، وبه يتميز أهل الإسلام والكفر، وينكشف المنافقون وأهل الريب ومَن في قلوبهم مرض.

واعلموا أن الله سبحانه بحكمته البالغة يمتحن عباده المؤمنين ويبتليهم بأهل الكفر والنفاق؛ ليظهر بذلك صدق المؤمنين في إيمانهم وترفع درجاتهم، وإلا فهو -سبحانه- قادر أن ينتقم من الكفار فيهلكهم عن آخرهم في لحظة واحدة؛ قال تعالى: (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ

لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) [محمد 4: 6]

وما فتئَ القرآنُ ينزلُ معظِّماً للجهاد (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) [محمد 7: 8] وتحذر آياتُه من التباطؤ عن الخروج لسبب من الأسباب، أو عائق من العوائق الأرضية، ويقول -جل ذكره-: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [التوبة:24].

ونظراً لتأخر النفوس أحياناً عن الجهاد لسبب من أسباب الدنيا، فقد جاء العوضُ في رَوحةٍ أو غدوةٍ في سبيل الله كبيراً وغير متكافئ مع متاع الدنيا، وقال -صلى الله عليه وسلم-: "لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها" رواه البخاري. فإذا كان هذا في الغدوة والروحة، فما الظنُّ بما هو أعظم من ذلك من درجات الجهاد؟

أن درجات المجاهدين في سبيل الله عالية، روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ».

أجل، لقد أعلنها محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- على الملأ، وأقسم، وهو الصادق الأمين، برغبته في الجهاد وفضل الشهادة في سبيل الله يوم أن قال: "والذي نفسي بيده! لولا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي ولا أجدُ ما أحملُهم عليه، ما تخلَّفتُ عن سريةٍ تغدو في سبيل الله! والذي نفسي بيده لوددتُ أنِّي أُقْتَلُ في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل" رواه البخاري.

أن للشهيد عند الله ست خصال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ». صحيح الترمذي

أن أرواح الشهداء تسرح في الجنة، سُئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169]؟ قال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك [شرح صحيح مسلم]، فقال: « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ

اطلاعَةً، فَقالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا» صحيح مسلم

✉ومنها أن المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

📝من كرامات الشهيد أنه لا يجد ألم الموت الشديد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ، إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ». صحيح الترمذي

👍لذلك عندما نسمع قصة أَنَسُ بنُ النَّضْرِ في قِتَالِ بَدْرٍ أنه لَقِيَ سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ، وقالَ له "إنِّي أجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ، فَمَضَى فَقُتِلَ، فَما عُرِفَ حتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بشَامَةٍ أوْ ببَنَانِهِ، وبِهِ بضْعٌ وثَمَانُونَ مِن طَعْنَةٍ وضَرْبَةٍ ورَمْيَةٍ بسَهْمٍ". فلا نستغرب أنه استمر في الجهاد برغم هذه الإصابات البليغة والجروح العميقة، وكأن الله برحمته يسكن آلامهم حتى يثبتوا ويستمروا وينالوا الدرجات الرفيعة.

📋قال ابن القيم رحمه الله: «لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل مس القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات، وأفضلها، وأعلاها» إغاثة اللهفان.

📋قال المناوي رحمه الله: «يعني أنه تعالى يهون عليه الموت، ويكفيه سكراته وكربه، بل رُبَّ شهيد يتلذذ ببذل نفسه في سبيل الله طيبة بها نفسه».

👍لا بد من إحياء شعيرة الجهاد في النفوس، ولا بد من العلم أن الجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان، وتطوعه بالجهاد في سبيل الله أفضل من تطوع الحج والعمرة وعمارة المساجد، قال تعالى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) [التوبة:19-20].

📂ومن هنا تسابق المؤمنون إلى ميادين الجهاد، ورغبوا في الشهادة، ولا غرابة أن يُلقي أحدُهم بتمرات كانت معه ويقول: لئن أنا بقيت حتى آكلَ هذه إنها لحياة طويلة!

قالَ عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنْصَارِيُّ: يا رَسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ما يَحْمِلُكَ علَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قالَ: لا وَاللَّهِ يا رَسولَ اللهِ، إلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِن أَهْلِهَا، قالَ: فإنَّكَ مِن أَهْلِهَا، فأخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِن قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ منهنَّ، ثُمَّ قالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتَّى آكُلَ تَمَرَاتي هذِه إنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قالَ: فَرَمَى بما كانَ معهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتَّى قُتِلَ. صحيح مسلم. أسرَعُ إلى شوقًا إلى الشَّهادةِ.

📃ولا غرابة -كذلك- أن يتسابقوا إلى المرابطة في الثغور وهم يسمعون النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "رباط يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامِه، وإن مات جرى عليه عملُه الذي كان يعمله، وأُجري عليه رزقُه، وأمِنَ الفتَّان" رواه مسلم.

وقال-صلى الله عليه وسلم-:"مَوقِفُ ساعةٍ في سَبيلِ اللهِ خَيرٌ من قِيامِ لَيلَةِ القَدْرِ عند الحَجَرِ الأسْوَدِ ". صحيح الجامع

ولهذا قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: لأن أُرابِط ليلةً في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن أقوم ليلة القدرِ عند الحجرِ الأسودِ.

📃وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا كان الرباط في الثغور أفضل من المجاورة بمكة والمدينة، والعمل بالرمح والقوس في الثغور أفضلُ من صلاة التطوع. اهـ.

✉إنَّ في الجهاد في سبيل الله رفعاً لذُلِّ عن الأمةِ المسلمة، وما فتئ المسلمون -منذ غابت عنهم هذه الفريضةُ الإسلامية- يتمرغون في أوحال الذلِّ والتبعية، ويسومهم العدوُّ سوء العذاب، وتلك -وربي! واحدةٌ من أعلام نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- وهو القائل: "إذا تبايعتم بالعينة -وهي نوع من الربا-، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهادَ، سلَّط اللهُ عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجِعُوا إلى دِينكم" رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح.

✉ومن هنا يَفْرُقُ أعداءُ الملِة من الجهاد، ويتخوفون كثيراً من المجاهدين الصادقين، ولذا يَعمدون إلى تشويه صورة الجهاد، ورمْي المجاهدين بأبشع الألقاب، وتكاد صيحاتُ المجاهدين وتكبيرهم تقطع أنياط قلوبهم، وإن كان استعدادهم ضعيفاً.

✉وإذا لم يُستغرب هذا من الأعداء، فإن المؤسف والمستغرب حقاً أن تروج مثلُ هذه الشائعات في بلاد المسلمين، وتتسلل هذه الأفكار المحبطة للجهاد والمشوهة لصورة المجاهدين عند بعض أبناء المسلمين، ويتردد في الإعلام العربي والإسلامي مفاهيم خاطئة عن الجهاد وأهدافه، وعن المجاهدين وصولاتهم.

✉والجهادُ في سبيل الله طريقنا إلى العز والتمكين في الدنيا، وهو طريقٌ موصل للجنة ونعيمها في الآخرة فـ "الجنَّةُ تحت بارقةِ السيوف" و "الجنَّةُ تحت ظلالِ السيوفِ" رواه البخاري.

✉تُرى، كم نُحدث أنفسنا بالجهاد، وهل نتخوف على أنفسنا من النفاق حين لا نغزو ولا نحدث أنفسنا بالغزو؟ وفي الحديث الصحيح قال -صلى الله عليه وسلم-: "مَن مات ولم يغزُ ولم يُحدِّث نفسَه بالغزو، مات على شعبةٍ من نفاقٍ".

✉ومن هنا حبيباتي تبدو خطورة تناسي الجهاد، وعدم تحديث النفس به، ويرحم الله أقواماً وأمماً كانت تنام وتستيقظ على أخبار الجهاد، وترابط الشهور؛ بل الأعوام، في الثغور لحماية أمة الإسلام، ونشر دين الله ما بلغ الليل والنهار.

✉وفي سنن المرسلين وسِيَرهم -عليهم السلام- هممٌ عالية للجهاد، وفي (صحيح البخاري): باب من طلب الولد للجهاد، وفيه ساق الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قال سليمان بن داود -عليهما السلام-: لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأةٍ، أو تسعٍ وتسعين، كلهنَّ يأتي بفارس

يجاهدُ في سبيله، فقال له صاحبُه: قل: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشقِّ رجلٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيده! لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون.

✉وهنا فائدة: قال الحافظ ابن حجر: قوله (باب من طلب الولد للجهاد) أي: ينوي عند المجامعة حصول الولد ليجاهد في سبيل الله، فيحصل له بذلك أجرٌ، وإن لم يقع ذلك.

✉إن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما أن لهم الرفعة في الدنيا؛ قال تعالى: (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) [النساء:95-96].

🗐قال ابن دقيق العيد رحمه الله: «الجهاد أفضل الأعمال؛ لأنه وسيلة إلى إعلان الدين ونشره، وإخماد الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم».

🗐وقال العز بن عبد السلام رحمه الله: «لما بذل الشهداء أنفسهم من أجل الله، أبدلهم الله حياة خيرًا من حياتهم التي بذلوها، وجعلهم جيرانه، يبيتون تحت عرشه، ويسرحون من الجنة حيث شاءوا، لما انقطعت آثارهم من السروح في الدنيا».

✉وقال أيضًا: «يشرف البذل بشرف المبذول، وأفضل ما بذله الإنسان نفسه وماله، ولما كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد، جعل الله من بذل نفسه في أعلى رتب الطائعين وأشرفها لشرف ما بذله مع محو الكفر ومحق أهله، وإعزاز الدين وصون دماء المسلمين».

✉وقد أمر الله بجهاد الكفار والمنافقين وجهاد هؤلاء على أربع مراتب: بالقلب واللسان والمال والنفس؛ فجهاد الكفار بالمال والسلاح، وجهاد المنافقين بالحجة والجدال.

🗐قال ابن القيم -رحمه الله-: والتحقيقُ أن جنس الجهاد فرضُ عين، إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع. اهـ

قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41].

🗐وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والجهاد منه ما هو باليد، ومنه ما هو بالقلب، والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة، فيجب بغاية ما يمكن»، وفي الحديث: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» صحيح أبي داود.

✉وليس يخفى أن الإخلاص شرط في قبول الأعمال كلها، وقد جاء النص عليه في الجهاد، قال -صلى الله عليه وسلم-: "والله أعلم بمن يجاهد في سبيله" رواه البخاري.

وجاء رجلٌ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجلُ يقاتل للذِّكر، والرجلُ يقاتلُ ليُرى مكانُه، فمَن في سبيل الله؟ قال: "مَن قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله" رواه البخاري.

ومن هنا يكون الحديث عن الجهاد الذي ترفع به راية الإسلام وينشر به العدل، ويحقَّق به حكمُ الله في الأرض، ويُذلُّ به الكفار، وتطهر به الأرضُ من الظلم والجور، ويُخلى بين الناس وعبوديتهم لرب العالمين؛ وليس الجهادُ الذي تُزهق به الأرواح بغير حق، أو تُدمر به الممتلكات بغير علم ودون فائدة، أوتُرفع به الرايات العميَّة، أو يكون ميداناً للشهرة، أو تبرز فيه العصبيات والإقليميات الضيقة.

وفي فترات العز والقوة للمسلمين ترفع راياتُ الجهاد، ويبرز القادة المجاهدون، وكلما خيم الضعف في الأمة توارت رايات الجهاد وقلَّ المجاهدون.

ومنذ أن بدأ محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- جهاده للأعداء، وراية الجهاد مرفوعةٌ على أيدي خلفائه الراشدين من بعده حتى انساح الإسلام في مشرق الأرض ومغربها، وجاءت الدولة الأموية والعباسية، لتكملا مسيرة الفتح الإسلامي، وهكذا الدولة الأيوبية والمماليك وغيرها من دول الإسلام. وحينها كان الإسلام عزيزاً، والعدوُّ مقهوراً، وأهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحقِّ يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

ومع قوة المسلمين وغلبتهم وتحريرهم البلاد وقلوب العباد كان العدلُ قائماً، والناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

تُرى ما الذي حلَّ بالمسلمين حتى تراجعوا عن مراكز القيادة، ولم يتركوا الجهاد فقط، بل تخطفهم العدوُّ وغزاهم في قعر دارهم: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد:11]. ومن لم يَغْزُ غُزي، ومن لم يدع إلى الخير دُعيَ للشر!

أمة الإسلام! ومع فترات الضعف التي تمر بها الأمة المسلمة أحياناً فهي أمة خير، وذات رسالةٍ خالدةٍ، وقد يفتر جيلٌ أو يتراخى أهلُ عصرٍ، ثم يبعث الله جيلاً آخر أكثر قوة وشجاعة، فينصر الله بهم الدين، ويَكبت الأعداء، ويفضح المنافقون.

ومن سمات هذه الأمة أن الجهاد فيها ماضٍ إلى يوم القيامة، ومع البَرّ والفاجر، وذلك بخبر الذي لا ينطق عن الهوى حين قال: "الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، والأجرُ والمغنم" رواه البخاري.

واستنبط العلماء من الحديث: بشرى بقاء الإسلام وأهله إلى يوم القيامة، لأن مَنْ لازم بقاء الجهاد بقاءَ المجاهدين وهم المسلمون.

ونحن نرى اليوم كم أرهبت حركات الجهاد –وإن كانت متواضعة- أعداء الله، فأطفال الحجارة في فلسطين، هددوا كيان العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة، وكم أَرعب الأفغان والشيشان من بعدهم روسيا الشيوعية، على الرغم من فارق العددِ والعُدَّة، وهكذا الأمر في

البوسنة والهرسك وكوسوفا، وكشمير والفلبين وغيرها من بلاد المسلمين، ونسأل الله أن يُمكِّن للمسلمين وينصر المجاهدين الصادقين، ويذلَّ الكفرة ويهزمهم أجمعين.

✉والجهادُ بالمال معناه أن تدفع مالاً يستعين به المجاهدون في سبيل الله في نفقتهم ونفقة عيالهم، وفي شراء الأسلحة وغيرها من معدات الجهاد، وفضله عظيم، وقد ذكره الله في كتابه مقدماً على الجهاد بالنفس، مما يدل على أهميته ومكانته عند الله.

قال -صلى الله عليه وسلم-: " ثلاثةٌ حقٌّ على اللهِ عونهم: المجاهدُ في سبيلِ اللهِ، والْمُكَاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يُرِيدُ العفافَ ". سنن الترمذي

✉في هذا الحَديثِ يَقولُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: "ثلاثةٌ"، أي: ثلاثةُ أصنافٍ مِن النَّاسِ "حقٌّ على اللهِ"، أي: واجبٌ مِن اللهِ سبحانه وتعالى على نفسِه "عونُهم"، أي: تيسيرُ أمورِهم، وتوفيقُهم ونحوُ ذلك، ونذكر منهم: "المجاهدُ في سبيلِ اللهِ"، أي: المحاربُ بسِلاحِه لنَشرِ كَلمةِ اللهِ تعالى، ويكونُ العونُ بتَيسيرِ أمورِ الجهادِ مِن أسلحةٍ وغيرِها. الدرر السنية

وقال -صلى الله عليه وسلم-: " مَن ماتَ ولَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّثْ به نَفْسَهُ، ماتَ علَى شُعْبَةٍ مِن نِفاقٍ". صحيح مسلم

✉وفي هذا الحديثِ الحثُّ على الغَزوِ وعلى تحديثِ النَّفْسِ به؛ الغَزْو لِمَن يستطيع، وتَحديث النَّفْسِ لمَن عَجَزَ عنه وحِيلَ بَينه وبَينَه؛ فإنَّه يَنبغي أنْ يُحدِّثَ نَفسَه به ويَكونُ على نِيَّةِ الجِهادِ والغَزْوِ، بحيثُ إنَّه لو تَيسَّرَ له لفَعَلَه في أيِّ وقتٍ. الدرر السنية

وفي (سنن ابن ماجه): (باب التغليظ في ترك الجهاد)، ساق الحديث عن أبي أمامة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " من لم يغزُ أو يجَهِّز غازيًا أو يخلف غازيًا في أَهلِهِ بخيرٍ، أصابَهُ اللَّهُ سبحانَهُ بقارعةٍ قبلَ يومِ القيامة". صحيح ابن ماجة.

✉"مَن لم يَغْزُ"، أي: بنفْسِه، "أو يُجَهِّزْ غازيًا"، أي: يُجَهِّزْ غيرَه بالعُدَّةِ والسِّلاحِ مِن مالِه الخاصِّ ويُخْرِجْه إلى الجِهادِ، "أو يَخْلُفْ غازيًا في أهْلِه بخيرٍ"، أي: يَقُمْ مَقامَه بعدَه في خِدمةِ أهلِه؛ بأنْ يَصيرَ خليفةً له ونائبًا عنه في قضاءِ حوائجِهم، "بخيرٍ"؛ احترازًا عنِ الخِيانةِ، كانتْ نتيجةُ عدمِ القيامِ بهذه الأمورِ أنْ "أصابَه اللهُ بقارِعةٍ قبْلَ يومِ القِيامةِ"، أي: بداهِيَةٍ مُهْلِكةٍ. الدرر السنية

✉وفي الحديثِ: بيانُ العاقبةِ الوخيمةِ والعذابِ الشديدِ لِمَن لم يَغْزُ في سَبيلِ اللهِ بنفْسِه أو مالِه، أو شارَكَ في تجهيزِ جُيوشِ المُسلمينَ، أو قام برِعايةِ أُسَرِ المُحاربينَ. الدرر السينة

وقال -صلى الله عليه وسلم-: "إذا ضَنَّ الناسُ بالدينارِ والدرهمِ، وتَبَايَعُوا بالعِينَةِ، وتَبِعُوا أذنابَ البقرِ ، وتَرَكُوا الجهادَ في سبيلِ اللهِ ، أَدْخَلَ اللهُ تعالى عليهمْ ذلًّا ، لا يَرْفَعُهُ عنهمْ ؛ حتى يُراجِعُوا دينَهمْ" الجامع الصغير

✉وفي هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "وتَرَكوا الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ"، والمقصودُ ابتعَدوا عنِ الجِهادِ رغبةً في الدُّنيا "أنزَلَ اللهُ بهم بَلاءً" وهو صَغارٌ، ومَسكَنةٌ، وما يَنتُجُ عنهما من الذُّلِّ والاستِهانَةِ، "فلم يَرفَعْه عنهم حتى يُراجِعوا دينَهم"، أي: لا يُرفَعُ هذا الذُّلُّ عن المُسلِمينَ

حتَّى يَرجِعوا إلى الجِهادِ، وسمَّاه هُنا دينًا؛ زَجرًا، أو حتَّى يَرجِعوا إلى دِينِهم بشُمولِه وكَمالِه، فيُقدِّموا ما يَجِبُ أنْ يُقدَّمَ في مَوضِعِه مِن أحكامِه، فمَن تَرَكَ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ من الجِهادِ مع قُدْرتِه، واشتَغَلَ عنه بتَحْصيلِ الدُّنيا من وُجوهِها المُباحَةِ حَصَلَ له من الذُّلِّ، فكيف إذا اشتَغَلَ عن الجِهادِ بِجَمعِ الدُّنيا من وُجوهِها المُحرَّمةِ؟ الدرر السنية

✉والجهاد في سبيل الله يكون بالمال ويكون بالنفس، وقد جاء الحث على الجهاد بالمال مقدماً على الجهاد بالنفس في آيات كثيرة -قال تعالى: (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [التوبة: 41]

✉وعلق سبحانه النجاة من النار ومغفرة الذنوب ودخول الجنة على الجهاد بالأموال والأنفس؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [الصف 10: 12]

✉وأخبر -سبحانه- انه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة:111].

وقال- صلى الله عليه وسلم-: " مَن أنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبيلِ اللَّهِ، دَعاهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ، كُلُّ خَزَنَةِ بابٍ: أيْ قُلْ هَلُمَّ " صحيح البخاري.

النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أخبَرَ أنَّ مَن تَصدَّقَ بعَدَدِ اثنَينِ مِن أيِّ شَيءٍ كان صِنفَين أو مُتشابِهَينِ، كبَقَرَتينِ، أو دِرهمَينِ، أو رَغيفَينِ، أو ثَوبينِ، ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ به الإنفاقُ مرَّةً بعْدَ أُخرى، أي: جاعلًا الإنفاقَ عادةً له. الدرر السنية

وقال -صلى الله عليه وسلم-: من أنفقَ نفقةً في سبيلِ اللَّهِ كتبت لَهُ بسبعمائةِ ضعفٍ " صحيح النسائي

"جَاءَ رَجُلٌ بنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقالَ: هذِه في سَبيلِ اللهِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: لكَ بهَا يَومَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِئَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ". صحيح مسلم

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: "من أَرْسَلَ بِنَفَقَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ فَلَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" ابن ماجة في السنن

وأخْرَجَ أحْمَدُ والحاكِمُ والبَيْهَقِيُّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «مَن أعانَ مُجاهِدًا في سَبِيلِ اللَّهِ أوْ غارِمًا في عُسْرَتِهِ أوْ مُكاتِبًا في رَقَبَتِهِ أظَلَّهُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّهُ».

قال الله تعالى:(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (261) البقرة

✉قال الكلبي: نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف ، أما عبد الرحمن بن عوف فإنه جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بأربعة آلاف درهم صدقة ، فقال : كان عندي ثمانية آلاف درهم ، فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم ، وأربعة آلاف أقرضتها ربي . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت " .

✉وأما عثمان - رضي الله عنه - فقال : علي جهاز من لا جهاز له في غزوة " تبوك " ، فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها. وقال أبو سعيد الخدري : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رافعا يده يدعو لعثمان ويقول : " يا رب ، إن عثمان بن عفان رضيت عنه فارض عنه . فما زال رافعا يده حتى طلع الفجر ، فأنزل الله تعالى فيه : (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) الآية .

وفي البخاري (أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ – رضى الله عنه – حَدَّثَهُ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –« مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ».

✉فالجهاد بالمال معناه أن تدفع مالاً يستعين به المجاهدون في سبيل الله؛ في نفقتهم ونفقة عيالهم وفي شراء الأسلحة وغيرها من معدات الجهاد. وفي ذلك فضل عظيم؛ لأن الله ذكره في القرآن مقدماً على الجهاد بالنفس مما يدل على أهميته ومكانته عند الله، والمسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

قال تعالى (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة 244 : 255]

✉وإذا صدق في سؤال الله الشهادة، بلغه الله منازل الشهداء، روى مسلم في صحيحه من حديث سهل بن حنيف عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ».

وأختم بهذه الأبيات التي أرسلها عبد الله بن المبارك رحمه الله إلى الفضيل بن عياض من طرسوس:

يَا عَابِدَ الحَرَمْيِنِ لَوْ أَبصرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي العِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحةَ تَتْعَبُ

رِيحُ العَبِيرِ لَكُمْ ونَحْنُ عَبِيرُنَا ... رَهْجُ السَّنَابِكِ والغُبَارُ الأَطْيَبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ

لَا يَسْتَوِي غُبْارُ خَيْلِ اللهِ فِي ... أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ

هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنطِقُ بَيْنَنَا ... لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

فألفيت الفضيل بكتابه في الحرم، فقرأه وبكى، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح.

✉ألا فحدثوا أنفسكم بالجهاد، وربُّوا ناشئتَكُم على حُبِّه، وعلِّموهم الرماية وركوب الخيل، وأعينوا المجاهدين الصادقين بأموالكم ودعواتكم، اللهم ارفع راية الجهاد، وأزل به ما انتشر من البلاء والفساد.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آل هو صحبه أجمعين.

المراجع:

الجهاد في سبيل الله: سليمان بن حمد العودة

في فضل الجهاد في سبيل الله: صالح بن فوزان الفوزان

فضل الجهاد في سبيل الله د. أمين بن عبدالله الشقاوي